

ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

(معتمد ومصنف دوليًا)

الرقم الدولي المعياري للمؤتمر



المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية

22 - 24 أكتوبر 2025م الموافق 30 ربيع الآخر - 2 جمادى الأولى 1447هـ

دبي - الإمارات العربية المتحدة

الهيئات العربية والدولية أعضاء المجلس الدولي للغة العربية



إحياء الجماد: قراءة نفسية لقصيدة القوس العذراء للعلامة محمود محمد شاكر

د. محمد أحمد فؤاد هاشم

المقدمة والتمهيد

الأدب في جوهره ليس زخرفاً لفظياً ولا صناعة لغوية مجردة، بل هو مرآة للنفس البشرية في صراعاتها وتقلباتها. ومن هنا نشأت الصلة الوثيقة بين الأدب وعلم النفس؛ فالأول يمدّ الثاني بمادة حيّة نابضة بالتجارب الإنسانية، والثاني يمدّ الأول بأدوات قادرة على النفاذ إلى أعماق الرمز والصورة والكشف عن التوترات والدوافع الخفية. لذلك لم يعد النقد الأدبي الحديث يكتفي بالتحليل البلاغي والجمالي، بل تطوّر إلى مناهج متعددة أبرزها النقد النفسي بأبعاده المختلفة، التي تنظر إلى النص بوصفه كياناً حياً يعكس تجربة المبدع الداخلية.

وفي هذا السياق يبرز اسم العلامة أبو فهر محمود محمد شاكر (1909-1997م)، أحد أبرز أعلام الأدب والفكر واللغة في القرن العشرين، وصاحب مشروع أصيل في النقد والبيان تجلّى في كتابه الشهير رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. فقد آمن - رحمه الله - بأن الكلمة وعاء للمعنى، وأن الشعر أصدق انعكاس للوجدان في أصفى تجلياته. لذلك جاء شعره - على قلته - عميقاً في رموزه، متيناً في سبكه، مشبعاً بتجربته الفكرية والوجدانية.

وتعدّ قصيدته القوس العذراء إحدى المحطات البارزة في تجربته الشعرية، بل وفي الأدب العربي الحديث، كما أشار د.إحسان عباس بقوله: «لا ريب عندي أن الشعر الحديث قد ضل كثيراً حين لم يهتد إلى القوس العذراء». (عباس، 1979م). وهي قصيدة طويلة التزم فيها الوزن والقافية الكلاسيكية، لكنها تفرّدت بعمق رمزي ونفسي. فقد جعل أبو فهر من القوس رمزاً محورياً، ومن العذراء صورة مقابلة، ليغدو النص ساحة تجاذب بين الجماد والإنسان، وبين الأهواء والقيم، وبين الانحراف والانضباط. والأهم أنه لم يكتفِ بتوظيف الكائنات غير الحية رموزاً أدبية، بل أجرى عليها تحويلاً نفسياً جعلها كائنات حية تعبّر عن معاناة النفس البشرية، وهو ما يفتح الباب أمام قراءة تحليلية تتجاوز البعد البلاغي إلى النفسي. وتتفرّد تجربة شاكر بكونها مشبعة بخلفية إسلامية أصيلة، تجعل من رموزه الشعرية رؤية متميزة عن النظريات الغربية المادية.

تتجلّى أهمية هذا البحث من سعيه إلى قراءة القوس العذراء قراءة نفسية تكشف آليات إحياء الجماد في النص الشعري، وتُبرز كيف استطاع شاكر عبر أدواته الفنية أن يجعل من القوس

مرآة لمعتركات الإنسان الداخلية. وتتمثل إشكاليته الرئيسية في: كيف تحوّل الجماد في هذه القصيدة إلى كيان حيّ يحمل دلالات نفسية عميقة تكشف توترات الشاعر والمتلقي معاً؟

وسيعتمد البحث منهجاً أدبياً نفسياً يقوم على ثلاثة محاور:

- تحليل الرموز الشعرية ودلالاتها النفسية.
 - قراءة الصور والمعاني في ضوء التذوق الأدبي الذي أصّله شاعر.
 - استجلاء البعد النفسي للتحويل النفسي للجماد، في ضوء مدارس علم النفس المختلفة.
- ويتضمن البحث مقدمة وأربعة فصول، يعقبها خاتمة وتوصيات، إضافة للمصادر والمراجع:

المقدمة والتمهيد

- أهمية التداخل بين الأدب وعلم النفس.
- خلفية عن شاعر الشاعر الأديب.
- مشكلة البحث وأهدافه.
- خطة البحث والدراسات السابقة.

الفصل الأول: التأصيل النظري للتحليل النفسي للأدب

- مدارس علم النفس المختلفة في الأدب.
- إحياء الجماد في منظور علم النفس، وآلياته.
- التمييز بين النقد النفسي وأسلمة النقد.
- التذوق الأدبي كأساس للتحليل، وتمايزه عن الرؤية الغربية.

الفصل الثاني: القراءة الأدبية لقصيدة القوس العذراء

- الوزن والبناء.
- القافية واللغة.
- الصور الشعرية.

الفصل الثالث: الرموز النفسية والبعد النفسي العام في القصيدة

- القوس كرمز للصراع الداخلي، العذراء كرمز للنقاء والرغبة.
- التصادم بين الغرائز والقيود.
- ملامح القلق والتوتر والبحث عن الطهر.
- التحليل النفسي للشخصيات والرموز الثانوية.

الفصل الرابع: التحويل النفسي للجماد - التطبيق المباشر

• كيف تتحول القوس من جماد صامت إلى كائن حي.
• الأبعاد النفسية في النص.

• الأثر في المتلقي.
• مقارنات موجزة مع نماذج أخرى.

الخاتمة والنتائج

• أبرز ما توصل إليه البحث.
• توصيات لدراسات لاحقة.

وتجدر الإشارة هنا إلى ندرة الدراسات التي تناولت القوس العذراء عمومًا، وانعدام تلك التي تناولتها من زاوية نفسية خالصة، الأمر الذي يمنح هذا البحث قيمة خاصة في سدّ فجوة معرفية، وفتح أفق جديد للتفاعل مع نصوص محمود شاعرًا ونقدًا. ولعل أقرب تلك الدراسات:

- هالة فؤاد، البعد القيمي والأخلاقي في القوس العذراء، مجلد 34، مجلة الزهراء 2024م.

إضافة إلى إشارات متناثرة في دراسات أخرى تناولت القصيدة من منظورات مختلفة، منها على سبيل المثال:

- إحسان عباس، القوس العذراء، ضمن دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاعرًا بمناسبة بلوغه السبعين، مكتبة الخانجي 1979م.

- أحمد إبراهيم خليل، محمود شاعرًا، رسالة ماجستير جامعة الأزهر 2003م.

- أيمن إبراهيم تعليب، القوس العذراء في الخطاب النقدي المعاصر، مكتبة الآداب 2006م.

- سعد أبو الرضا محمد، القوس العذراء وعشق التراث، مجلة رابطة العالم الإسلامي 1997م.

- عبده زايد، القوس العذراء: الصوت والصدى، عدد 16، مجلة الأدب الإسلامي 1418هـ.

- محمد محمد أبو موسى، القوس العذراء وقراءة التراث، مكتبة وهبة 1983م.

- محمد مصطفى هدارة، القوس العذراء: رؤية في الإبداع الفني، ضمن دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاعرًا بمناسبة بلوغه السبعين، مكتبة الخانجي 1979م.

- محمود إبراهيم الرضواني، شيخ العربية وحامل لوائها أبو فهر محمود محمد شاكر بين
الدرس الأدبي والتحقيق، مكتبة الخانجي 1995م.

ومن هنا فإن هذا البحث الذي أعدته يسعى إلى تقديم قراءة نفسية في تقاطع الأدب والنفس
عند شاكر، وهي أول دراسة نفسية خالصة في القوس العذراء، تكشف عن سر خلودها وأبعادها
الإنسانية العميقة.

الفصل الأول: التأصيل النظري للتحليل النفسي للأدب

1- مدخل إلى التحليل النفسي للأدب

ارتبط الأدب منذ نشأته الأولى بالنفس البشرية؛ فهو الصدى الذي يكشف ما يعتمل في
أعماقها من رغبات وتناقضات، والمستودع الذي يخترن مخاوفها وأحلامها. ومن ثم لم يكن
غريباً أن يحظى التحليل النفسي للأدب باهتمام متزايد منذ مطلع القرن العشرين، حيث نظر
الدارسون إلى النص بوصفه نتاجاً للوجدان واللاوعي أكثر من كونه بناءً لغوياً أو إيقاعياً
فحسب. فالقصيدة ليست تشكيلاً صوتياً موزوناً، بل هي خطاب نفسي متخفّ يحمل بصمات
المعاناة الداخلية للشاعر، سواء أكان واعياً أم غير واعٍ.

2- مدارس التحليل النفسي في الأدب

تعددت مقاربات النقد النفسي للنص الأدبي باختلاف المدارس النفسية:

- المدرسة التحليلية: فرويد يقرأ النص بوصفه كشفاً للرغبات المكبوتة في اللاوعي الفردي،
بينما يرى يونغ أن النص يستدعي رموزاً أزلية يتقاسمها البشر جميعاً في اللاوعي الجمعي.
 - المدرسة المعرفية السلوكية: تركز على أنماط التفكير والتشوهات المعرفية وارتباطها
بالمشاعر والسلوك وكيف تنعكس في اللغة والصور الشعرية.
 - المدرسة الوجودية والإنسانية: تنظر إلى النص باعتباره سعيًا إلى المعنى وتعبيراً عن
حرية الفرد وقلقه الوجودي.
 - الاتجاهات الرمزية الحديثة: تتعامل مع النص كشبكة من الإشارات والدوال التي تخفي
وراءها صراعات نفسية متوارية خلف الرمز.
- إن هذا التعدد في المدارس يثري التحليل، إذ يتيح قراءة النص من زوايا متكاملة، بدلاً من
حصره في منظور واحد.

3- آليات التحويل النفسي للجماد

من أهم الظواهر النفسية في النصوص الأدبية ما يمكن تسميته بالتحويل النفسي للجماد؛ حيث تتحول الأشياء الجامدة إلى كائنات حية تحمل ملامح الإنسان وتفاعلاته. ويمكن رصد عدة آليات لهذا التحويل مع ذكر أمثلة واضحة لها من الشعر العربي الأصيل:

• التشخيص/ التجسيد (Personification): أنسنة الجماد ومنحه صفات إنسانية.

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذلت دمعاً من خلانقه الكبر

الليل هنا لم يعد محيطاً زمانياً صامتاً، بل فاعل ضاغط يضيق على أبي فراس الحمداني صدره، والدمع يرتقي من كونه مجرد سائل إلى ذاتٍ متصفة بما يتصف به البشر من خلقٍ كالكبرياء والإذلال.

• الإسقاط (Projection): إلقاء المشاعر الداخلية على الخارج، وهي من آليات الدفاع

النفسي عند فرويد.

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي ويطلب تأري البرق مُنصَلت النصل

نقل ابن زيدون حزنه العميق إلى الغمام فجعل السماء تبكي بدلاً عنه، كما حمل البرق ثأره فجعله سيفاً مسلواً ينتقم له. فالطبيعة هنا ليست وصفاً خارجياً، بل مشهداً يسقط فيه مشاعره الداخلية من أسى وغضب.

• الرمزية (Symbolism): جعل الجماد علامة لرغبات ونزاعات نفسية أعمق ودلالة على

معاني غير مباشرة.

السيف أصدقُ أنباء من الكتب في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعب

السيف هنا رمز للحسم واليقين، معبر عن حاجة أبي تمام النفسية إلى الوضوح في مواجهة الاضطراب.

• الاستعارة (Metaphor): نقل المعنى الإنساني إلى الجماد في صورة بلاغية مكثفة.

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهلُ مني وبيضُ الهندي تقطرُ من دمي

حوّل عنتره خطر الرماح والسيوف إلى استعارة مشحونة بالبطولة والعاطفة المتأججة، كاشفاً التوتر بين الموت والحب.

• الإزاحة (Displacement): آلية دفاع نفسية تنقل الانفعال من موضوع أصلي إلى آخر

بديل أقل تهديداً.

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلبُ وأعجبُ من ذا الهجرِ والوصلُ أعجبُ

أزاح المتنبي مشاعره عن كافور الإخشيدي وأسندها إلى «الشوق»، فجعل الشعور كياناً مستقلاً يحيل إليه انفعاله، فهو يحاول إخفاء مشاعره لكنها تغلبه.

• الاغتراب (Alienation): التعبير عن الانفصال والعزلة عبر صورة جامدة.

عَرِيتَ وَكَانَ بِهَا الْجَمِيعُ فَأَبْكَرُوا مِنْهَا وَغَوِدَرَ نُؤْيُهَا وَثُمَّامُهَا

الديار هنا تحولت إلى رمز للصمت والوحشة والغربة، حيث يعبر لبيد بن ربيعة بغربة الديار عن شعوره بالوحدة، في صورة تنسجم مع الوجودية التي ترى الاغتراب سمة لوعي الإنسان القلق.

وهكذا تتكامل هذه الآليات البلاغية والنفسية؛ لتجعل من الجماد وسيطاً نفسياً يعبر عن أعماق الشاعر، ويتيح للمتلقي أن يجد في النص انعكاساً لذاته، وسيكون لهذه الآليات حضور بارز في قصيدة القوس العذراء.

4- التمييز بين النقد النفسي وأسلمة النقد

وبعد استعراض الآليات والمناهج يظل من الضروري التمييز بين النقد النفسي الغربي الذي يقوم على خلفية مادية أو لا دينية، وبين ما يمكن تسميته بأسلمة النقد النفسي. فبينما رأى فرويد في الرموز تعبيراً عن رغبات جنسية مكبوتة، ورأى يونغ أنها صور بدئية في اللاوعي الجمعي، نجد عند محمود شاكر رؤية مغايرة تنطلق من خلفية إسلامية للإنسان والوجود. فهو لا يفصل بين الذوق الأدبي والقيم الإيمانية، ويرى أن النص كاشف للنفس في ارتباطها بالحق والباطل، الفجور والتقوى، لا مجرد مسرح لصراعات الغرائز. وهذه ليست محاولة قسرية لأسلمة القوس العذراء، ذلك لأن خلفية أديبنا الإسلامية لا تخفى على أحد، كما أن قصيدته هذه جاءت صدى لصوت الشماخ وهو صحابي جليل أدرك الجاهلية ثم أسلم، ويحكي قصة القواس عامر الخضري وهو أيضاً صحابي رضي الله عنهما، كما أنه ضمن القصيدة قيماً إسلامية واضحة، واختار موسم الحج ليكون محل بيع قوسه، إضافة إلى تصريحه بالبعد القيمي والأخلاقي والإيماني حتى آخر بيت في القصيدة.

من المهم هنا أيضاً توضيح أن هذه القراءة لا تسعى إلى أسلمة المناهج الغربية، ولا إلى فرض مصطلحات دينية على منهج نفسي. إنما الغاية هي توظيف الأدوات النفسية بوصفها أدوات تحليل، لا بوصفها عقيدة، مع الحفاظ على السياق العربي والإسلامي للقصيدة وصاحبها. وبهذا يظل البحث أدبياً نفسياً، يحترم مرجعية شاكر النقدية، ويستفيد في الوقت ذاته من مدارس علم النفس المختلفة، فأستاذنا إذن لا يفصل بين الذوق الأدبي والبصيرة الإيمانية، لكنه في الوقت ذاته لا يفرض على النص قوالب وعظمية، بل يترك للتذوق أن يكشف النفس في ضوء مرجعيتها الأخلاقية.

5- محمود محمد شاكر والنظر النفسي في الأدب

إن محمود شاعر لم يكتب تنظيرًا في علم النفس، لكنه أرسى في "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" مبدأً جوهرياً: أن التذوق الأدبي هو البوابة لفهم النصوص. هذا التذوق يتجاوز ظاهر الألفاظ إلى أعماق الدلالات، وهو ما يفتح الباب أمام التحليل النفسي. وفي قصيدته اليتيمة تجلّى هذا المنهج في أبهى صورته؛ لتتحول القصيدة إلى ساحة تتقاطع فيها الأهواء والقيم، في إطار رؤية إنسانية وإيمانية متكاملة. فلم يكن شاعر يلجأ إلى الرمزية من باب الغموض الفني كما فعل بعض رموز الشعر الغربي، بل من باب الكشف عن التوتر الإنساني في ضوء ميزان إيماني أخلاقي.

ومن ثم، فإن إدخال أدوات التحليل النفسي هنا ليس افتئاتاً على صاحب القصيدة، بل امتداد لمنهج في الغوص إلى ما وراء الألفاظ من وجدان إنساني.

6- أهمية هذا المنظور

إن النظر إلى الأدب من خلال عدسة التحليل النفسي يتيح تجاوز حدود البلاغة الظاهرة إلى البنية الباطنة للنص. فالقصيدة تُقرأ كآلية دفاع نفسي يلجأ فيها الشاعر إلى الجماد ليعبره صوته. ومن خلال هذه الرؤية يتبدى أن الجماد في الأدب ليس مجرد أداة وصفية، بل حامل للوجدان الإنساني وميدان لصراعات الذات. وهنا يبرز محمود شاعر بتوظيفه الفريد لهذه الإمكانيات في القوس العذراء، حيث يلتقي التحليل النفسي بالدلالة الإيمانية في إطار فني متماسك، يفتح آفاقاً جديدة لفهم النصوص الشعرية في ضوء النفس الإنسانية.

الفصل الثاني: القراءة الأدبية لقصيدة القوس العذراء

1. الوزن والبناء، والقافية واللغة:

تميّزت القصيدة بخاصية إيقاعية فريدة؛ إذ لم تلتزم نسقاً وزنياً واحداً، بل عمد محمود شاعر إلى افتتاحها بوزن معين، ثم انتقل بعد سبعة وثلاثين بيتاً إلى وزن آخر. فقد افتتحها بأبيات على بحر الرمل يذكر فيها بقول الشماخ:

(فَدَعَ الشَّمَاخُ يُبْنِيكَ عَنْ قَوَائِمِهَا الْبَائِسِ فِي حَيْثُ أَنَاهَا: 1)

فبعد هذه الانسيابية التي عرض فيها اختصاراً قصيدة الشماخ، انتقل إلى وزن آخر أكثر ثباتاً وقوة على بحر المتقارب:

تَجَاوَبُ عَنْهُ كُهُوفُ الثُّرُونِ، تَرَدَّدَ فِيهَا كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ (38)

إن هذا التحوّل الوزني لا يمكن اعتباره ترفاً عروضياً، بل هو انعكاس مباشر لحركة النفس الداخلية: الوزن الأول جاء سلساً، وقافيته الهاء الممدودة جعلته أكثر انفتاحاً وتدقّقاً وتشويقاً،

يحقّر الأذهان لتسبح في بحر من التساؤلات لا شاطئ له، بينما بدا الوزن الثاني أكثر ملحمية، أضافت عليه قافية اللام الساكنة قوة ليكشف عن ثورة النفس الداخلية وتردد المشاعر والجزم القاطع. فكان الأول غائب يصف قصيدة الشماخ من بعيد، والثاني حاضر شاهد يوغل في التعمق والغوص في أعماقها. وبذلك يصبح البناء الوزني في ذاته رمزاً نفسياً لمسار القصيدة، من الصوت إلى الصدى، ومن السطحية إلى التعمق، ومن الظاهر إلى الباطن، ومن الوصف إلى التحليل، ومن الحكاية إلى ما وراءها.

أما اللغة، فهي على سمة شيخ العربية شاكر: فصيحة متينة، ضاربة في التراث العربي، لكنها في الوقت نفسه مشبعة بعاطفة معاصرة. فهي لغة نفسية - رمزية، تراثية البناء حديثة الروح. قوية الألفاظ كالقوس، مرهفة المعاني كالعذراء.

2. الصور الشعرية

تعتمد القصيدة على شبكة من الصور التي تمنح الجماد حياة خاصة، فتجعل من القوس طرفاً فاعلاً في اتصال إنساني.

- والسهم تحول فيها إلى أخ صغير تكيه أخته بعد موته، فهما أبناء شجرة واحدة.
 - أما الطبيعة المحيطة - من برق وكهوف وجبال وأشجار - فقد تحولت إلى أصوات مشاركة في الدراما النفسية، كأنها صدى مكبر لارتجاج الذات.
 - لم تقتصر القصيدة على أنسنة الجماد بل تجاوزتها إلى التعبير عن مشاعر الحيوان واضطرابه. تشير إلى ذلك المعنى د. هالة فؤاد بقولها: (لقد سلب الشماخ بشعره حمر الوحش أحاديث نفسها ووساوس قلبها المضطرب من شدة الخوف، فانبرى شاكر متعجباً ومتسائلاً كيف استطاع الشماخ أن يرى بعيون الحمر ويفصح عن اضطرابها؟). (فؤاد، 2024م)
- فَكَيْفَ تَدَسُّسَ هَذَا الْبَيَّانُ حَتَّى رَأَى بَعْیُونَ الْحُمْرَ؟ (46)
- وبذلك تحولت الصور في القصيدة إلى لغة باطنية تعبر عن الانفعال النفسي الكامن، وتضفي على الأبيات طابعاً وجودياً متحرراً.

3. خلاصة الفصل

إن قراءة القصيدة من زاوية الوزن والبناء، والقافية واللغة، والصور الشعرية، تكشف عن تجربة شعرية تتجاوز الشكل إلى الجوهر النفسي. فقد صار التحول الوزني علامة على تحول الذات من الشك إلى اليقين، وغدت الصور أداة لبعث الجماد وتجسيد التخبط الداخلي، بينما حملت القافية واللغة في طياتها صرامة فنية وشحنة وجدانية في أن. لتغدو القصيدة نصاً يجمع بين إحكام العروض وعمق النفس، في وحدة عضوية قل أن نجد نظيراً لها في الشعر العربي الحديث. وبذلك كانت (قصيدة "القوس العذراء" رؤية جديدة في الإبداع الفني، تأخذ مكانها في

الذروة من الأعمال الرائعة في أدبنا المعاصر، بل في الأدب الإنساني في كل زمان ومكان)
(هدارة، 1979م).

الفصل الثالث: الرموز النفسية والبعد النفسي العام في القصيدة

1. القوس كرمز للصراع الداخلي

القوس في ظاهرها أداة صيد وقتال، لكنها في القصيدة تجاوزت حدودها المادية لتصبح صورة مكثفة لاضطراب الذات. فهي تمثل الجسد المشدود إلى أقصى طاقاته، تخزن التوتر ثم تطلقه سهماً نافذاً؛ تماماً كما يُخزن الإنسان مشاعره حتى ينفجر بها في مواجهة مصيره.

فَأَبَا .. يَسْأَلُهَا: هَلْ رَضِيتِ بِكُلِّ الْأَحَبِّ؟ قَالَتْ: أَجَلْ (107)

الأداة هنا تُصوِّر كذات حيّة تتبادل الحوار مع صاحبها، في تجلٍّ واضح للإسقاط النفسي-الدرامي على الجماد، وللتناقض الداخلي بين ثكل أخيها وإرضاء معشوقها!

2. العذراء كرمز للنقاء والرغبة

العذراء هنا ليست مجرد وصفٍ عارضٍ، بل ثنائية متوترة: صفاء ونقاء من جهة، وإغراء ورغبة مكبوتة من جهة أخرى.

فَلَمَّا أَدَّأقْتُهُ، إِذْ دَاقَهَا، هَوَى أَضْمَرْتُهُ لَهُ لَمْ يَزَلْ (91)
تَبَيَّنَ إِذْ رَامَهَا، حُرَّةً حَصَانًا ، تَعَفُّ فَلَا تُبْنَدَلْ (92)
تَلِينُ لِأَنْبِلٍ عُشَّاقِهَا، وَتَأْتِي عَلَيْهِ إِذَا مَا جَهَلْ (93)

شبه العذراء بالأنثى التي تنزّين بالحياء والعفة وتغالب شهواتها المكبوتة ورغباتها الكامنة، مرتقيًا بها إلى قمة الاحتياج الإنساني.

3. التصادم بين الغرائز والقيود

يتجلى في المساومات المتكررة حول القوس: بيعها، شراؤها، تقييمها بالذهب أو الفضة. وكأن الرغبة الداخلية (التعلق بتلك الأداة بوصفها امتدادًا للذات) تصطم بقيود المجتمع وضغوط الفقر.

[كَيْفَ قَالَ الشَّيْخُ؟! .. كَلًّا! إِنَّهَا بَعْضِي وَالْمَالُ؟. بَلِ الْمَالُ فَدَاهَا (27)
وَفِي الْمَالِ عَوْنٌ عَلَى مِثْلِهَا! وَفِي الْبُؤْسِ هُونٌ ، وَدَلٌّ ، وَقُلٌّ!] (199)

تتحول آلهة المعشوقة إلى موضوع اقتصادي، بينما حقيقتها أنها جزء من هوية الشاعر نفسه. يمكن قراءة هذا المشهد معرفيًا-سلوكيًا بوصفه إعادة تقويم مشوه للقيمة؛ إذ تُختزل المعشوقة - وهي «بعضى» - إلى ثمنٍ في سوقٍ صاخب، فتتقدّم المعادلة المادية على المعنى الوجودي للارتباط.

4. الثكل والرثاء كرمز للفقد

يتكرر حضور ألفاظ الثكل والبكاء، فيكشف أن القوس ليست آلة بلا حياة، بل موضع تعلق عاطفي عميق.

فَضَمَّتْ عَلَيْهِ الْحَشَا رَحْمَةً وَكَادَتْ تُكَلِّمُهُ .. لَوْ عَقَلُ! (101)

صورتها وهي تبكي وترثي، صورة تنقل فقد الشاعر الداخلي إلى الكائنات، وكأن الآلة صارت كياناً يبكي بدلاً عنه.

5. ملامح القلق والتوتر والبحث عن الطهر والأمل

• تكرار الاستفهام "كيف؟" يشي باضطراب ذهني ولاوعي قلق. هذا القلق النفسي يمكن قراءته في ضوء المدرسة الإنسانية-الوجودية باعتباره نزوعاً نحو الكمال والمعنى، وكذلك من منظور معرفي-سلوكي بوصفه تشوّهات معرفية وتوقعات كارثية لشخص لا يحتمل الغموض.

• صور الحج والمناسك («كيف وافى موسم الحج بها؟») تضي على القوس بُعداً دينياً، كأنها تسعى إلى التطهر من أدران الشهوات.

• القوس الجديدة في ختام قصيدته تبتث الأمل والتفاؤل وتحث على العمل والتسامي (Sublimation)، وهي آلية دفاع نفسي ناضجة.

أَفُقْ! يَا خَلِيلِي! أَفُقْ! لَا تَكُنْ خَلِيفَ الْهُمُومِ، صَرَّيْعَ الْجِلْدِ (283)
صَدَّقْتُ! صَدَّقْتُ! وَأَيْنَ الشَّبَابِ؟ وَأَيْنَ الْوَلُوعِ؟ وَأَيْنَ الْأَمَلِ (287)

وفي مقابل خاتمة الشماخ التي غلب عليها الحزن واليأس، يقدم شاعر في ختام قصيدته رؤية علاجية إيجابية مليئة بالتفاؤل والإيمان والأمل. كما أشار هدارة: (إرادة الحياة القوية في النفس الطامحة القادرة التي لا تركز إلى اليأس ولا تقبلها الهموم ولا يعتصرها الحب حتى يفقدها معنى الحياة) (هدارة، 1979م)

6. التحليل النفسي للشخصيات والرموز الثانوية

• الشيخ/المشتري: سلطة اجتماعية واقتصادية، تجسد تحويل القيمة الروحية إلى مادية.
• الفتى/المالك: صورة الشاعر نفسه، المتردد المتشبه، القائل: «إنها بعضي والمال... بل المال فداها».

• السهم: الجرح النفسي، أثر الفقد الذي لا يلتئم.

• الزحام/الموسم: تمثيلٌ لـ«الأنا الجمعية» التي تمارس ضغطاً أخلاقياً-اقتصادياً على الفرد، فتدفعه إلى قرار البيع أو تمنعه، وتحول الصراع الداخلي إلى امتحان اجتماعي معلن.

الخلاصة

تكشف الرموز في أبيات القصيدة عن نصّ مشبع بالبعد النفسي:

• القوس = العذراء رمز لتناقضات النفس وتحولاتها، كما تمثل طهرًا مشوبًا بالرغبة، وحماية محفوفة بالخطر.

• المساومة تجسيد لصدام الرغبة مع القيود الاجتماعية.

• الثكل والبكاء انعكاس للفقد المكبوت.

وهكذا تؤول القصيدة إلى لوحة للنفس القلقة الممزقة بين الأهواء والقيم، بين الذات والمجتمع. بل تجاوزت ذلك لتشكّل مواجهة أوسع بين الأمم. ولأنّ شيخ العربية لم يكن شاعر تجربة ذاتية فحسب، بل حامل هم جمعيّ وناطقًا بقضايا أمته خرجت تحفته الفنية معبرة عن ذلك، (أبان فيها عن نفسه أكثر مما أبان عن القواس، وشخص فيها قضية أمته في صراع البقاء أكثر مما شخص صراع القواس مع النفس والمال) (زايد، 1418م)، وهي بهذا تمهّد مباشرة للفصل المحوري اللاحق، حيث يتحقق اكتمال تحويل الشيء الجامد إلى كائن حيّ يتنفس انفعالات الإنسان ويعكسها.

الفصل الرابع: التحويل النفسي للجماد – التطبيق المباشر على قصيدة القوس العذراء

1- من الجماد الصامت إلى بذرة الحياة

يفتح شاعر قصيدته بإرجاع القوس إلى أصلها الأول، فلا يقدّمها أداة ميكانيكية جامدة، بل كائنًا نما من رحم الطبيعة، له منبثٌ وحياءٌ كامنة:

«أين كانت في ضمير الغيب من غيلٍ نَمَاهَا؟» (2)

أداته الوجدانية هنا لا تولد من لحظة الصياغة فحسب، بل من "ضمير الغيب"، من غيلٍ نامٍ كثيفٍ هو رحمها الأول. هذا الاستدعاء يضع الأساس لفكرة الإحياء النفسي؛ فالمادة تتحوّل إلى

كائن يملك نسباً وأصلاً، له جذور في الطبيعة وامتداد في التاريخ، تماماً كما يتعامل التحليل النفسي مع الرمز لا كصورة عابرة، بل كـ«عقدة مكثفة» تحمل ماضياً كاملاً مضمراً في لاوعي الفرد والجماعة.

2- القوس في حوار ونجوى

منذ اللحظة الأولى يرفع الشاعر آلة الرمي من مرتبة الجماد إلى مقام الذات الحيّة، فتصبح موضوعاً للحوار والأنس:

- «كَيْفَ قَرَّتْ فِي يَدَيْهِ، وَاطْمَأَنَّتْ لِقَنَاهَا؟» (6)
«كَيْفَ نَاجَتْهُ .. وَنَاجَاهَا .. فَلَأَنْتَ .. فَلَوَاهَا؟» (9)
«أَيُّ تَكْلَى أَعَوْلْتُ إِذْ فَارَقَ السَّهْمُ حَسَاهَا؟» (12)
«كَيْفَ يُرْضِيهِ سَجَاهَا؟ كَيْفَ يُصْنَعِي لُبْكَاهَا؟» (13)

لقد أصبحت الآلة المصنوعة ذاتاً أنثوية: تبكي وتئن، تناجي وتطمئن. إنها صورة نفسية صافية لآلية الإسقاط (Projection)؛ فالشاعر يلقي أحزانه عليها، لتبكي هي بدلاً منه. هكذا تتحوّل من أداة حرب إلى شريك عاطفي، يعبّر بلسانها عن اختلاجاتٍ لا يستطيع الإفصاح عنها بلسانه المباشر.

3- التفاعل الكوني واتساع المشهد النفسي

لا تقف التجربة عند حدّ أداة الصيد وحدها، بل يتسع المشهد ليشمل الطبيعة والكون، فتجاوب الكهوف ليس وصفاً طبيعياً، بل رجوع صدى للصوت النفسي الداخلي:

«تَجَاوَبُ عَنْهُ كُهُوفُ الْفُرُونِ، تَرَدَّدَ فِيهَا كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ» (38)

هذا الامتداد يشي بآلية التماهي (Identification)؛ فالكون بأسره يتماهى مع الذات المتأزمة. الجبال والكهوف تصبح مرايا للصوت الداخلي، وتحوّل المكان إلى فضاءٍ وجودي يُعيد ارتداد صرخات النفس القلقة. هنا يبلغ الإحياء بعداً كونياً، يجعل من الكيان الرمزي منفذاً لانفتاح الذات على الطبيعة في أوسع صورها.

4- العاطفة المتبادلة: بين الطاعة والعصيان

ترتقي القوس إلى مستوى أكثر تعقيداً: فهي لا تكتفي بالبكاء، بل تنمرّد وتُعانِد، ثم تخضع في علاقة شدّ وجذب أشبه بما تصفه التحليلات النفسية بـالتجاذب بين الهو والأنا:

- «يُعَرِّضُهَا لِلْهَيْبِ الْهَجِيرِ، رَوْوفاً بِهَا، عَاكِفاً لَا يَمَلُّ» (78)
«عَصْنَتْهُ، وَسَاءَتْهُ أَخْلَاقُهَا نُشُوزاً .. فَلَمَّا أَلْتَوْتُ كَالْمُدُنِ» (80)
«رَأَعَدَ النَّقَافَ لَهَا عَاشِقٌ يُؤَدِّبُهَا أَدَبَ الْمُؤْتَمِّلِ» (81)
«وَعَضَّ عَلَيْهَا .. فَصَاحَتْ لَهُ، فَاسْتَفَقَ إِشْفَاقَةً، وَأَنْجَفَلَ» (82)
«يُجَرِّدُهَا مِنْ تِيَابِ الْعِنَادِ، وَمِنْ دِرْعِهَا الصَّعْبِ، حَتَّى تَنْزِلَ» (86)

هذا الحوار النفسي العنيف يُجسّد دينامية العلاقة بين الإنسان وأهوائه: رغبة تتمرد، ثم تُقوّم بالحزم، ثم تعود للانقياد. إن الشاعر يصوّر الوتر الجامح كهوى متمرّد، عاتٍ أحياناً، مطيع أحياناً، يحتاج إلى تعديل السلوك المعوجّ عبر مزيج من العقوبة والرحمة. فهو قد أدب في إسفاق وقوم في صبر وحلم؛ حتى جرّدها من عنادها وروّضها من نشوزها. وهو بهذا يضع هذا الكيان المجازي في مركز العلاقة المعقدة بين العاطفة والضبط، بين الحب والسلطة.

5- الذروة الانفعالية:

تبلغ عملية الإحياء النفسي أوجها حين تتحوّل القوس إلى ذات إنسانية كاملة: عاشقة، رحيمة، باكية، مستغيثة:

«فَلَمَّا أَدَاقَتْهُ، إِذْ دَاقَهَا، هَوَىٰ أَضْمَرْتَهُ لَهُ لَمْ يَزَلْ» (91)
 «فَضَمَّتْ عَلَيْهِ الْحَشَا رَحْمَةً وَكَادَتْ تُكَلِّمُهُ .. لَوْ عَقَلْ!» (101)
 «أَرَنْتُ تُبْكِي أَخَاهَا الصَّغِيرَ: وَيُجِي!! أَخِي!! وَيُلْهُ!! أَيْنَ ضَلُّ» (103)
 «[وَحَشْرَجَةُ الْمَوْتِ: خُدْنِي .. إِلَيْكَ!! - لَتَيْيَك!! لَتَيْيَك!!]»، بع يا رجل. (209)

هنا يتحول المجاز الأنثوي إلى موضوع نفسي كامل (Object) بالمعنى النفسي؛ كأنها شخص بشري آخر. بكاؤها على السهم (أخيها الصغير) صورة إسقاطية للفقد، وصراخها عند البيع ذروة الاستغاثة الوجودية. إنها لم تعد جماداً، بل إنساناً مكلوماً، يحمل كامل ثقل المعاناة الداخلية.

6- أثر النص في المتلقي

يتجاوز النص صاحبه ليصير تجربة جمعية. فالقارئ لا يتعامل مع القوس كآلة، بل يتماهى معها، ويبكي لبكائها، ويشعر أن استغاثتها صدى لصوته الخاص. هكذا تتحوّل التجربة الفردية للشاعر إلى تجربة إنسانية مشتركة، حيث تتفاعل «الأنا» الفردية مع «الأنا الجمعية»، ويصبح النص أداة لنقل الانفعال من الذات إلى الجماعة.

7- مقارنات موجزة

• أبو تمام: تميز بذكائه الحادّ واستطاع في شعره أن يتعمق في المعاني ويُنطق الجمادات:

لمدينة عجماء قد أمسى البلى
 فيها خطيباً باللسان المعرب

يُحيي الشاعر المدينة المهذّمة الصامتة، حيث يستعير صوت الخراب والبلاء ليكون واعظاً ومذكراً وخطيباً ينطق بلسان مبين. فبينما اكتفى أبو تمام بإنطاق البلاء خطيباً على أنقاض المدينة كواعظٍ خارجي، فإن شاعرنا قد نقل الجماد إلى مستوى الانفعال الداخلي، إذ أنطق المادة الجامدة وجعلها تصرخ وتعبر عن أعماق الذات الإنسانية حتى بلغت ذروة الفاجعة والانكسار.

• المتنبي: بلغ المنتهى في أنسنة الجماد حين قال:

الخيْلُ واللَّيْلُ والبيداءُ تعرفني والسيفُ والرْمَحُ والقرطاسُ والقلمُ

فأخرج المتنبي الجمادات من صمتها وصيّرَها شهودًا ناطقةً بمجده. غير أنّ حضورها عنده ظلّ في إطار الشهادة والتوكيد، بينما ارتقى شاعرُ الجماد في عمله الملحمي إلى مرتبة الكمال البشري بكامل انفعالاته، متجاوزًا حدود الدلالة إلى عمق التجربة الوجودية.

• أحمد شوقي: تربع على قمة بعث الجماد في بردته الشهيرة:

رَبَعْتُ لَهَا شَرْفُ الْإِيوَانِ فَإِنصَدَعَتْ مِنْ صَدْمَةِ الْحَقِّ لَا مِنْ صَدْمَةِ الْقَدَمِ

صوّر شوقي شرف إيوان كسرى ونفخ فيها من روحه، لتغدو كأنها يرتاع ويرتجف عند ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم. فحوّل الأبنية الحجرية الجامدة إلى ذوات خاشعة أمام إرادة الله والحدث العظيم، أما محمود شاعر: فلم يتوقف عند جعل ارتياح قوسه وانفعالها لحظة عابرة، بل أحالها انعكاسًا دائمًا لقلق الإنسان وهشاشته.

«تُنَادِيهِ: وَيُحَكِّ! وَيَجِي!! هَلَكْتُ!! أَتَوَكُّ بِقَاصِمَةٍ! وَأَتَكُلُّ!» (204)

وبهذا يتضح تفرد شاعر وتجاوزه الجميع في عملية إحياء الجماد - وليست المقارنة هنا على إطلاقها-؛ إذ بلغ أديبنا بالتحويل النفسي للجماد ذروته الفنية والوجودية.

خلاصة الفصل

إن التحويل النفسي للجماد في القوس العذراء ليس مجرد تخيل بلاغي ولا تصوير لفظي، بل فعلٌ إبداعي عميق نقل العنصر المادي من أداة صيدٍ إلى ذات حيّة تحمل كل انفعالات الشاعر. وقد مرّت هذه العملية بمراحل متنامية:

• أصل طبيعي غيبي (ضمير الغيب، الغيل).

• حوار ونجوى (البكاء والمناجاة).

• تمرّد وعصيان (العناد والنشوز).

• عاطفة متبادلة (الرحمة والحب).

• ذروة مأساوية (البكاء على السهم، الاستغاثة، الموت).

وبهذا تستحيل القوس صدى للنفس الإنسانية في توترها وقلقها، وتكشف عن مفارقاتها الشعورية وتناقضاتها العاطفية. إن الشاعر - عبر هذا الإحياء - لم يقدم نصًا شعريًا فحسب، بل

قدّم أنموذجًا نفسيًا-فنيًا يوازي أعظم التجارب في الشعر العربي الحديث، بل يتخطاها عمقًا وابتكارًا.

الخاتمة والنتائج

بعد هذه الرحلة في قصيدة القوس العذراء لمحمود محمد شاكر، يتبين أن النص الشعري لم يكن مجرد بناء لغوي أو تزيين بلاغي، بل كان مسرحًا نفسيًا حيًا، تتحرك فيه الرموز والجمادات بوصفها كائنات فاعلة. ومن خلال التحليل، يمكن تلخيص أبرز النتائج في النقاط الآتية:

1. خصوصية منهج شاكر: أثبت البحث أن شيخ العربية قدّم تجربة شعرية فريدة، امتزج فيها الذوق الأدبي العميق مع رؤية إيمانية أصيلة، ما جعله يتميز عن النقد النفسي الغربي القائم على خلفيات مادية أو لا دينية.

2. التحويل النفسي للجماد: أبرز ما تميّزت به القصيدة هو جعل القوس ذاتًا حية تفيض بالمشاعر الوجدانية، وهو ما يُعدّ ذروة عملية إحياء الجماد. لقد تحولت الأداة إلى انعكاس نفسي كامل يعكس انفعالات الشاعر الداخلية.

3. البنية الفنية كمرآة للنفس: التحول الوزني، وبنية القافية، واللغة التراثية المشبعة بعاطفة معاصرة، كلها لم تكن وسائل شكلية، بل أدوات للتعبير النفسي العميق عن الانتقال من الانضباط والتماسك الظاهري إلى الانفجار والقلق الباطني.

4. الرموز النفسية: مثلت القوس رمزًا للاحتدام الداخلي، والعذراء رمزًا للعفة الممزوجة بالشهوة، فيما عكست المساومات رمزيةً للقيود الاجتماعية والمادية، أما صور البكاء والثكل فقد شكّلت تجسيدًا للفقد والحرمان النفسي.

5. أثر النص في المتلقي: أظهر البحث أن القارئ يتماهى مع القوس ككائن حي، فيبكي لبكائها ويقلق لقلقها، وهو ما يضاعف أثر النص ويحوّله من تجربة فردية للشاعر إلى تجربة إنسانية مشتركة.

6. أصالة شاكر: بالمقارنة مع تجارب كبار الشعراء (أبي تمام، المتنبي، شوقي)، يتبين أن شاكر بلغ أقصى درجات الإحياء النفسي للجماد، إذ لم يكتفِ بالرمزية أو الاستعارة، بل جعل القوس كائنًا كاملًا له صوت وانفعال ومصير.

توصيات لدراسات لاحقة

يفتح هذا البحث الباب أمام دراسات أخرى، من أبرزها:

- دراسة مقارنة بين القوس العذراء وتجارب أخرى في الشعر العربي الحديث وظاهرة إحياء الجماد، للكشف عن مدى فريدة شاعر.
- توسيع مجال التحليل النفسي للشعر العربي الكلاسيكي والمعاصر في ضوء مدارس علم النفس الحديثة (المعرفي السلوكي، الإنساني، الوجودي).
- بحث العلاقة بين التذوق الأدبي الذي أصّله شاعر في رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، وإمكاناته كمنهج لدراسة النفس الإنسانية من خلال الأدب.
- دراسة خصوصية البعد الإسلامي في مشروع شاعر، وربطها بالمناهج النقدية المعاصرة التي حاولت الموازنة بين النص الأدبي والمرجعيات الفكرية.
- إجراء دراسات تطبيقية بمنهج البحث النفسي ذاته على قصائد التراث العربي الكبرى، للكشف عن أبعادها الوجدانية والرمزية الكامنة.

الخلاصة العامة

إن قصيدة القوس العذراء تكشف عن قدرة محمود شاعر الفدّة على أن يجعل من الشعر تجربةً نفسية وجودية متكاملة، يتخللها الوجدان كما يتخللها الإيمان. لقد حوّل الجماد إلى كائن حيّ، نابض بالعاطفة، شاخص بالصوت والدمع والشكوى، حتى غدا كاشفاً لنوازع الإنسان الخفية.

فالقوس عنده ليست أداة صيدٍ فحسب، بل روحٌ مشدودة بين الرغبة والطهر، بين القوة والانكسار، بين الحياة والموت. ومن خلالها يطل القارئ على مأزق الإنسان الأبدي مع نفسه، ومجتمعه، وقدره. وهنا يتجلّى سرّ شاعر؛ إذ ارتقى بفن إحياء الجماد من مجرد تقنية بلاغية إلى رؤية فكرية ونفسية وروحية متكاملة.

ومن ثمّ تبقى القوس العذراء شاهداً خالداً على أن الشعر، حين تمتزج فيه حرارة العاطفة بصفاء الإيمان، يتحوّل إلى نافذة على أعماق الإنسان تكشف ضعفه وقوته، هواجسه ويقينه، وتثبت أن الكلمة الحق قد تُحيي ما نُظنّ أنه ميت، وتفجّر في الجماد روحاً خالدة لا تموت.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع الأساسية

- الشّمّاخ بن ضرار. ديوان الشّمّاخ. تحقيق صلاح الدين الهادي. دار المعارف، 1968م.
- أبو فهر، محمود محمد شاكر. القوس العذراء. دار المدني: جدة 1952م.
- محمود محمد شاكر. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. دار الهلال، القاهرة 1991م.

ثانيًا: المراجع النقدية ودراسات الأدب

- إحسان عباس، القوس العذراء، ضمن دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، مكتبة الخانجي 1979م.
- أحمد إبراهيم خليل، محمود شاكر شاعرًا، رسالة ماجستير جامعة الأزهر 2003م.
- أيمن إبراهيم تعيلب، القوس العذراء في الخطاب النقدي المعاصر، مكتبة الآداب 2006م.
- سعد أبو الرضا محمد، القوس العذراء وعشق التراث، مجلة رابطة العالم الإسلامي 1997م.

• عبده زايد، القوس العذراء: الصوت والصدى، عدد 16، مجلة الأدب الإسلامي 1418هـ.

• محمد محمد أبو موسى، القوس العذراء وقراءة التراث، مكتبة وهبة 1983م.

• محمد مصطفى هدارة، القوس العذراء: رؤية في الإبداع الفني، ضمن دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، مكتبة الخانجي 1979م.

• محمود إبراهيم الرضواني، شيخ العربية وحامل لوائها أبو فهر محمود محمد شاكر بين درس الأدبي والتحقيق، مكتبة الخانجي 1995م.

• هالة فؤاد، البعد القيمي والأخلاقي في القوس العذراء، مجلد 34، مجلة الزهراء 2024م.

ثالثًا: المراجع النفسية والنظرية

• بديع القشاعلة، مدارس علم النفس. فلسطين: مركز السيكولوجي 2021م.

• جوديث بيك، العلاج المعرفي: الأسس والأبعاد، ترجمة طلعت مطر للمركز القومي للترجمة، القاهرة 2008م.

• دوان شولتز، تاريخ علم النفس الحديث، ترجمة قذري حفني، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2017م.

- سيغموند فرويد، مقدمة في التحليل النفسي. ألمانيا 1917م.
- فضل الله إبراهيم، علم النفس الأدبي مع نصوص تطبيقية، دار الفارابي لبنان 2011م.
- كارل غوستاف يونغ، الإنسان ورموزه. ترجمة عبدالكريم ناصيف. التكوين جدة 2012م.

رابعًا: دواوين للمقارنة الشعرية

- أبو تمام، ديوان أبي تمام، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، مصر 2011م.
- أحمد شوقي، نهج البردة، وكالة الصحافة العربية، مصر 2017م.
- المتنبي، ديوان المتنبي، شرح عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، لبنان 2012م.